

الدار السلفية - الكويت

الناشـر
الدار السلفية للنشر والتوزيع
بناية الثويني – شقة ١٢
ص.ب ٢٠٨٥٧ هاتف ٤١٧٨٦٤
الكويت

قام بوضع الحواشي لهذه الطبعة الأخ علـي شـامي

الطبعـة الأولى
الكويت – ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .
الطبعـــة الثانيـــة
حلب ــ ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

مقدمــة الناشــر

الحمد لله رب العالمين . والعافية للمتقين

أما بعد

فإن الدار السلفية يسرها أن تقدم لطلاب الثقافة الاسلامية والعلم النقى المستمد من الكتاب والسنة هذه الرسالة التى تبين الموقف الحق الذى يجب أن يقفه المسلم نحو الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم . كما أنها تعالج مشكلة تهم جيلنا المعاصر وهى مشكلة الاجتهاد والعمل بالشريعة الاسلامية فى هذا العالم المضطرب المتغير .

والدار السلفية إذ تقدم هذه الرسالة الجديدة ترجو أن تكون بهذا قد اضافت لبنة جديدة فى صرح المنهج السلفى فى فهم الاسلام والعمل به والله نسأل التوفيق والسداد فى القول والعمل .

أبو معاويــة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين،أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا هو،وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،الداعى إلى صراط ربه،والذى قال « تركتكم على المحجة البيضاء لا يزيغ بعدى عنها إلا هالك »(1) وأسأله تعالى، أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. . . وبعد

فإن المسلمين اليوم، فى أمس الحاجة إلى الاجتماع ،على كلمة واحدة ، ولا يمكن أن يحصل لهم ذلك إلا إذا اجتمعت كلمتهم على الكتاب والسنة عقيدة وتشريعاً وسلوكاً وإن الدعوة إلى الكتاب والسنة ،تصطدم بتحجر المقلدين، الذين يظنون أن فى الدعوة إلى الكتاب والسنة،وتوحيد الفقه والتشريع، تنقيصاً من شأن الأئمة الأربعة، رضى الله عنهم أو انتقاصاً لهم . ولذلك يقومون بالتشويش، على دعوة الكتاب والسنة، زاعمين أنها دعوة لإلغاء الفقه ، وفتح باب التخرصات فى الدين ، وهذه الرسالة الميسرة المباركة،إن شاء الله بيان لحقيقة الدعوة

(1) رواه ابن ماجه ٤٣

السلفية فى أمر الاجتهاد والتشريع، وبيان موقف السلفيين الحق من الأئمة الأربعة رضى الله عنهم والله نسأل أن ينفع بها إخواننا المسلمين وأن يتقبلها منا إنه هو السميع العليم .

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت ١١ رجب سنة ١٣٩٧ هـ

حاجتنا الى الاجتهاد

يقسم العلماء العلم الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه إلى ثلاثة أقسام : قسم إخبارى وهو يتعلق بأمور الغيب والآخرة كصفات الله سبحانه وأعماله ، والرسالات والملائكة ، والجنة والنار والحساب وغير ذلك مما يدخل فى مسائل الغيب والايمـان .

وقسم يتعلق بالأعمال وهو التشريع والأعمال التى كلّفنا بها فمنها ما يتعلق بالصلة بين العبد وربه فتسمى العبادات وأعظمها الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ومنها ما يتعلق بين الناس بعضهم مع بعض كالزواج والطلاق والبيع ، والهبة والميراث وهكذا كافة الشئون المالية والسياسية . . الخ وقسم آخر يتعلق بالكمال الإنسانى وهو الأخلاق والتزكية وهذا القسم يتعلق بكلا القسمين الآنفين فهو من ناحية عمل قلبي ، فسلامة الصدر من الغل والحسد خلق ، وهو من ناحية ثانية عمل ظاهرى تشريعى ، فالسماحة والبذل والشجاعة وإكرام الضيف وما إلى ذلك أعمال ظاهرية .

والقسم الأول العقائد لا يدخله التغيير ولا التبديل ولا

الزيادة أو النقص فهو ثابت فى الرسالات جميعها وعلى لسان الأنبيـاء جميعـا .

وأما القسم الثانى فهو خاضع للظروف والملابسات والزمان والمكان بل هو فى حركة دائمة كما قال سبحانه وتعالى : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** »[1] ولذلك اختلفت شرائع الأنبياء بعضهم عن بعض ولا يعنى هذا الاختلاف من جميع الوجوه بل أصول الشرائع أيضا متفقة .

وبالرغم من أن شريعة الإسلام قد كملت بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم فان المسلمين فى تاريخهم الطويل قد احتاجوا الى أن يستنبطوا من هذه الشريعة أحكاما لقضاياهم ومشاكلهم المتجددة بتجدد الزمان والمكان والحوادث . ولذلك كان التشريع للحياة حركة متجددة بتجدد الحياة . وهذا يعنى أيضا أن وقف التشريع للوقائع المتغيرة هو عزل للشريعة عن حياة الناس لأن الحياة مستمرة . والتشريع ضوابط لهذه الحياة والحركة المستمرة فاذا تخلفت هذه الضوابط انفلت الناس الى شرائع أخرى وقوانين جديدة وهذا ما حدث تماما بالنسبة للشريعة الإسلامية حيث عزلت عن حياة الناس وعن التقنين لهم بجمود الحركة الفقهية التشريعية أولا ثم بالعزل السياسى والاجتماعى للتشريع الاسلامى .

وأما الأخلاق فبالرغم من ثباتها من حيث المبادئ والأصول

---

(١) المائدة ـ ٤٨ ـ

فالجانب العملى فيها يتغير تبعا للظروف والملابسات فالصبر والشجاعة والكرم وإن كان المعنى الأصلى فيه ثابتا باقيا الا أن المواقف التى تقتضى ذلك متغيرة أيضا .

هذه الحركة المتغيرة الدائبة للتشريع الإسلامى تقتضى أن يكون لدينا فى كل العصور وعلى مدار التاريخ رجال علماء أكفاء يضبطون حياة الناس ويوجهونها وفق الاسلام . وهؤلاء العلماء لا يجوز فقط أن يكونوا فى موقف الافتاء فقط بل أيضا فى موقع التنفيذ والقضاء ولذلك اشترط المسلمون للامام العام أن يكون مجتهدا وذلك أنه يحتاج فى كل يوم أن يتخذ من المواقف والأحكام مع المسلمين وغيرهم من الأعداء المحاربين ، والمسالمين والمستأمنين والمعاهدين ما يتفق مع الدين الذى أنزله الله سبحانه وتعالى وهذا يحتاج إلى الاجتهاد ، وكذلك اشترط فى القاضى أيضا أن يكون مجتهدا لأن الوقائع والمشاكل التى تعرض على القضاء ليست متماثلة بما وقع فى صدر الاسلام وفى عهد التشريع من كل وجه بل فى كل يوم يواجه القضاء مشكلات جديدة وحيلا شتى ووقائع متغيرة ومالم يكن القاضى فقيها مجتهدا فانه لا بد وأن يحكم بالجهل ويقع فى الظلم .

لهذه الأسباب فالمسلمون يحتاجون فى كل يوم بل فى كل ساعة إلى اجتهاد فقهى جديد : اجتهاد فى الافتاء واجتهاد فى القضاء واجتهاد لتنفيذ الأحكام وتطبيق الشريعة وفق مقتضيات

الحال وتغير المشاكل . ولنضرب على هذا أمثلة من واقعنا السياسى :-

سياسياً :المسلمون اليوم فى حاجة ماسة الى خلافة راشدة فكيف توجد الآن وما هو الطريق لها وفق الكتاب والسنة . يحتاج هذا إلى اجتهاد ودعوة . . . نقابل اليوم أعداء كثيرين فاليهود تحتل أرضنا وتشرد رجالنا ونساءنا وأطفالنا فما هو الواجب اليوم معهم هل الواجب الحرب أم العهد أم السلام والصلح . واذا كان الحرب فكيف واذا كان العهد فما هى مواصفاته وشروطه ، واذا كان السلام فما أيضا مواصفاته وشروطـه .

اقتصاديا،هل يجوز أن نودع أموالنا فى بلاد الغرب واذا كان جائزاً فهل يجوز وضع هذا المال بالفوائد أم بدونها ؟ واذا لم يكن جائزاً فما الحل ؟ . . . هذا إلى عشرات ومئات المشاكل الاقتصادية فى العمل ، والشركات ، والتأمين ، والتجارة ، وتحويل المال و . . . . وكل هذا يحتاج إلى علماء أعلام يفهمون الحياة ونظم المال الحاضرة ويفتون المسلمين بما يجب عليهم فى كل هذا .

وهكذا مشاكلنا الاجتماعية والخلقية والنفسية ، ومشاكل التطبيق للشريعة الإسلامية فى العصر الراهن ومشاكل المسلمين

فى بلاد الكفار الى الآف المشاكل وكلها تحتاج الى اجتهاد وحلول .

باختصار، المسلمون اليوم فى حاجة ماسة الى حركة اجتهادية تجديدية لا تكتفى فقط بإصدار الفتوى ولكن أيضا بمواكبة العمل بالاسلام فى إطار الفرد والجماعة والدولة وهذه الحركة الاجتهادية التجديدية هى التى تميز للمسلمين طريق العمل بالاسلام فى الوقت الحاضر وتأخذ بخطاهم خطوة خطوة نحو تحكيم الشريعة فى جميع شئون الحياة وبدون هذه الحركة التجديدية الاجتهادية الكاملة ستبقى الشريعة الاسلامية بمعزل عن حياة الناس وواقع التطبيق كما هو حادث الآن .

كيف نجتهد

عرف العلماء الاجتهاد الشرعى بأنه بذل الجهد للوصول الى ظن بحكم شرعى . وهذا يعنى أن المجتهد يبذل جهده ليعرف مراد الله سبحانه وتعالى فى قضية ما . فاما أن نعرف الحكم من نص قرآنى أو حديث نبوى أو اجماع للصحابة رضوان الله عليهم .

وأما أن يعرف هذا باستنباط وفهم من آية أو حديث وهذا الفهم يصيب ويخطئ ولذلك كان الاجتهاد الذى ينبنى على الفهم والاستنباط ظنيا لأن الفهم والاستنباط غير معصوم ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله : كل رجل يؤخذ من قوله ويرد عليه الا صاحب هذا القبر . (يعنى النبى صلى الله عليه وآله وسلّم) .[1]

والذى يعمل عقله وفهمه لمعرفة حكم ما لا بد بالطبع أن يكون أهلا لذلك ولذلك وضع العلماء شروطا للاجتهاد أعدلها : أن يكون المجتهد على علم بالقرآن والسنة وفهم لغة العرب وفهم الحادثة والواقعة المراد التشريع لها ومعرفة النصوص الخاصة فى شأن مثل هذه الواقعة . وهذا العلم بحمد الله متيسر

« ١ » ارشاد السالك / ٢٢٧ — ١ /

لكل من بذل فى هذا جهدا مناسبا كما قال تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »[1] وقال صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة »[2] وقال : « ان هذا الدين يسر . ولن يشاد الدين أحد الا غلبه »[3] ويسر الإسلام ليس فى العمل فقط بل فى الفهم أيضا .

ولذلك لم يخل تاريخ المسلمين فى كل عصورهم بحمد الله وتوفيقه من رجال أكفاء كانوا على مستوى الاجتهاد والفهم العام لدين الله سبحانه وتعالى وتعليم الأمة وتوجيه مسارها الى ما يرضى الله سبحانه وتعالى .

ولا يشترط بالضرورة أن يكون كل من قال قولا فى الدين أن يكون قوله صوابا موافقا للحق بل كل من اجتهد فى هذا الدين بعد رسول الله والى يومنا هذا قد أصاب وقد أخطأ وقد رد على غيره ورد غيره عليه كما قال الامام مالك أيضا : ما منا الا قد رد (بالبناء الفاعل) ورد « بالبناء للمفعول » عليه .

فهذا أبو بكر الصديق يرد الجدة ويقول لا أرى لك فى كتاب الله سبحانه شيئاً ولا أعلم أن الرسول أعطى الجدة شيئا فيأتيه من يخبره أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس وهذا عمر بن الخطاب يرد عليه الصحابة فى وقائع كثيرة جدا كالتيمم وتقسيم السواد ، وتحديد المهور ، وكذلك عثمان

« ١ » القمر ـ ١٧ ـ « ٢ » في مسلم « احب الدين الى الله الحنيفية السمحة » « ٣ » رواه البخاري

رضى الله عنه رد عليه الصحابة في وقائع كثيرة من العبادات والمعاملات ، وعلي خالفه الصحابة في كثير من القضايا الفقهية والسياسية . . . الخ[1]

فكيف بغيرهم من العلماء والفقهاء .

ومهما كان الأمر فإن الله سبحانه وتعالى الذى ضمن لنا حفظ هذا الدين لم يضمن حفظ نصوصه فقط بل ضمن سبحانه وتعالى تطبيقه وفهمه في الأمة والى قيام الساعة فلا يزال قائم لله بحجة فردا كان أو جماعة حتى يأتي الدجّال كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :«لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».[2] وهذه الطائفة التي تقوم بالحق لا شك أنه يعترضها كل يوم من المشاكل والأقضيات والحوادث ما لم يكن في زمن الصدر الأول ولا شك أن هذه الطائفة محتاجة دائماً الى اجتهاد دائم ينير طريقها وفق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا الاجتهاد الدائم المتجدد للحوادث المتجددة هو ما نحتاجه دائماً . وهو ما يقع فيه الخطأ والصواب .

والإسلام منذ أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قد راعى ذلك فالرسول الموحى اليه علم الله أنه لن يبقى في الأمة الى نهاية الدنيا وأنه سيخلفه الخلفاء

---

(١) انظر اعلام الموقعين لابن القيم (٢) رواه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ٦ — ١/

وسينقطع الوحي من السماء ويبقى لهم الفهم والاستنباط والاجتهاد وعلم الرب تبارك وتعالى أيضا أنهم سيتعرضون للخطأ والصواب ولذلك لم يكلفهم شططا بالوصول الى الصواب فى كل رأى وفى كل اجتهاد لأن هذا تكليف بما لا يطاق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد »[1] ووقعت حوادث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اقتضت الاجتهاد واجتمع الصحابة فيها أحياناً على رأى واحد واختلفوا أحيانا الى آراء كثيرة . وكان من هذه المشاكل : الخلافة لمن ؟ وهل ينفذ جيش أسامة وقد ارتد العرب أم يحارب المرتدون ؟ وهل مانعو الزكاة مرتدون يجب قتالهم أم مسلمون لا يجوز سفك دمائهم . وهل يحارب فارس الروم أم لا ؟ وهل عمر بن الخطاب يستحق الخلافة بالعهد أم لا ؟ . ومن يتولّى بعد عمر هل بعهد كما فعل أبو بكر أم يترك الأمر للمسلمين كما فعل رسول الله ؟ واقترح عمر النفر الستة الذين توفى الرسول وهو عنهم راض ونظم نظاما فريدا لاختيار رجل منهم . ومئات المشاكل فى خلافة عثمان ومثلها فى خلافة علي بن أبى طالب هذا الى مئات من المشكلات الاجتماعية التى كان للخليفة رأى مخالف لرأى الناس نحو مشكلة اسكان سبى الفرس وصناعهم بالمدينة المنورة : رأى عمر أن تطهر المدينة منهم ورأى العباس

« ١ » رواه البخاري ومسلم وأحمد

وابنه عبد الله أنه لا بأس بهذا وكان رأى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يمنعوا من سكنى المدينة . هذه المشكلات وغيرها كثير جدا احتاج من المسلمين الى اجتهاد ، واذا جئت تعدد مشاكلنا اليوم في كل ناحية من نواحى الحياة لوجدت أننا فى حاجة ماسة إلى جهود عظيمة واجتهاد بالغ وفهم عميق للكتاب والسنة لنستطيع أن نسيّر حياتنا وفق منهج الله سبحانه وتعالى .

هل يوجد المجتهد المطلق ؟

أنزل الله سبحانه دينه ليسع الناس جميعا . وليسع الأرض جميعا ، وليسع الزمان جميعا من لدن محمد صلى الله عليه وسلم والى قيام الساعة .

وهذه السعة فى الزمان والمكان والخلق على تعدد المشكلات واختلاف النيات وكثرة الاحتمالات لا يسعها عقل مهما أوتى من قدر فى الحفظ والذكاء . والدين الذى أنزله سبحانه وتعالى ليس شأنا واحدا من شئون الناس ، وانما هو شئونهم جميعا : حياتهم وموتهم ، وعبادتهم ومعاملاتهم ، واخلاقهم فما من شأن من شئونهم الا وهو فى اطار الدين وجوبا أو اباحة أو ندبا أو تحريما أو كراهة فقلوب الناس يجب صياغتها وفق عقائد هذا الدين وموازينه واخلاق الناس يجب تقويمها وفق أخلاق. هذا الدين ومثالياته ، ومعاملات الناس على تعدد هذه المعاملات قد وضع لها أصول وقواعد وضوابط لتحقيق العدل والسعادة وتحت كل باب من هذه الابواب فروع كثيرة جدا ، وهذه الفروع تكثر بكثرة المشكلات وتتجدد بتجددها .

فلو جئت الى باب العقائد ومسائل الايمان مثلا لعلمت

أنك تستطيع أن تلم بعقائد الإسلام وعلومه فى الغيب فى وقت يسير ولكن إذا أردت تصحيح عقائد الناس وفقا للعقائد الإسلامية لوجدت أنك أمام بحر متلاطم من المشكلات والحوادث والباطل الذى يحتاج إلى ردود وتنفيد ولوجدت أيضا أنك أمام شبهات حول الدين تكاد لا تدع فرعية من فرعيات هذه الدين الا وشوهت صورتها وطمست معالمها وكل هذا يحتاج إلى رد وابطال . وهكذا فالحركة بهذا الدين تحتاج إلى جهد جهيد وجهاد طويل لا يقف عند حد وكذلك السن فى جميع أبواب علوم الاسلام التى تنظم حياة الناس جميعا . ولما كانت هذه العلوم جميعها لا يستوعبها عقل ، ولا يحيط بها فكر كان القيام بالدين جهادا وعملا ودعوة وقضاء وسياسة أمر متعذر لا يمكن أن نرى المجتهد المطلق الذى يعلم كل شيء ويفتى فى كل شيء ويحكم على كل شيء لانه ان كان يوجد عالم على هذا النحو فليس ، إلا الله وحده العليم بكل شيء سبحانه وتعالى . وأما البشر فهما أوتوا من سعة العلم ، وسعة الأقوال وحدة الذكاء فلن يستطيعوا أن يحيطوا من الدين الا بجوانب منه تضيق وتتسع بما ينعم الله سبحانه وتعالى على من يشاء منهم .

ولذلك لا يجوز بتاتا أن نتصور المجتهد المطلق فى أى

حقبة من حقب التاريخ لهذا الدين : خليفة كان أو اماما أو قاضيا أو مفتيا بل يجب أن نتصور دائما أن سعة الدين أكبر من سعة الفرد . وأنه لا يسع الدين كله الا الجماعة ولذلك أصبحنا نحتاج فى دراسة الاسلام الى أمرين هامين :

أولا : المعرفة الكلية العامة للدين وهذه المعرفة الكلية لا بد وأن تشمل أساسيات هذا الدين من ايمان وعبادات ومعاملات وأخلاق ليأخذ كل فرد التصور العام للدين بمجموعه لا بتفصيلاته .

ثانيا : المعرفة الجزئية التخصصية لأبواب هذا الدين وفرعياته فيحتاج المسلمون دائما الى متخصصين فى علوم القرآن وفى علوم الحديث وأصول الفقه ، والفقه ، والمعاملات والسياسات والى متخصصين فى الدعوة والجهاد بالكلمة والرد على شبهات الخصوم وهكذا وبمجموع هؤلاء المتخصصين يستطيع المسلمون أن يثبتوا فى وجه الزحف الجاهلى الذى يريد اقتلاع حضارتهم ودينهم . وكذلك نحتاج من هؤلاء المتخصصين الى المجتهدين الماهرين لا الى المقلدين الجامدين الذين يعيشون على مستوى الأحداث فهماومواجهة وتفاعلا . . . فهما للاحداث الجارية ، ومواجهة للباطل من هذه الاحداث بما تقتضيه هذه المواجهة، وتفاعلا مع هذه الأحداث على النحو

الذى يثرى أمة الاسلام فى أفرادها وعلومها ويحقق لها عزّتها ومكانتها .

باختصار لم يوجد المجتهد المطلق فى تاريخ الاسلام ولن يوجد هذا المجتهد المطلق حتى قيام الساعة وانما هناك العلماء الذين يأخذ كل منهم من العلم بقدر استيعابه وفهمه فيخطىء ويصيب ، وتبقى الأمة بمجموعها معصومة عن الخطأ[1] ويبقى الصواب موزعاً بين أفراد هذه الأمة والصواب فضل الله الله يؤتيه من يشاء ولا يمكن ولا يجوز أن يحتكر رجل من الرجال بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصواب كله أبداً وأن تكون أقواله كلها قرآنا ووحيا منزلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) يشير الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الله لايجمع امتي على ضلاله » . صحيح رواه الترمذي

الثابت والمتغير في الدين

أصاب المسلمين ضرر عظيم من فهم بعضهم الخاطئ لقوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »[1] هذه الآية من القرآن وما يشهد لمعناها من الحديث كقوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[2] وحكموا على كل اضافة فى الدين بالبطلان والرد وبذلك عطّلوا بابا من أعظم أبواب الاسلام وهو باب الاجتهاد التطبيقى ووقفوا جامدين أمام مشكلات التطبيق وتغير الاحوال .

وقام بازاء هؤلاء طائفة أخرى زعموا أن كل قول فى الدين صدر عن إمام أو عالم فهو حق لأنه من الدين وقد يكون مستندا إلى الدليل وبذلك أصبح الدين عند أولئك واسع سعة كل الفتاوى والآراء والأقوال التى صدرت عن مجتهدين ووسّع هؤلاء الاجتهاد أيضا حتى شمل العقائد والعبادات والأخلاق وبذلك صار الدين عند هؤلاء مسخا مشوها لا تناسق فيه بأى وجه من الوجوه بل فى كل قضية رأيان وثلاثة

« ١ » المائده ٣ « ٢ » رواه البخاري ومسلم وابنماجه

وعند هؤلاء أن كل هذه الأقوال صواب يجوز للمسلم أن يأخذ رأيا منها وأن يعمل به .

وبين الفئة الأولى التى وقفت عند النصوص فقط بلا فهم ولا وعى لمتطلبات تطبيقها والتى جعلت أبواب الدين كلها بابا واحدا لا يجوز الزيادة فيه والاجتهاد . وبين الفئة الثانية التى جعلت كل رأى صدر من عالم ما يجوز العمل به . أقول بين هاتين الفئتين قامت المعارك الكلامية والمناقشات واستخدمت الآيات والأحاديث وأولت تأويلا بعيدا وشغل المسلمون وما زالوا مشغولين . . . . وقد غاب عن هؤلاء وهؤلاء بعض القواعد والموازين التى تضع الحق فى نصابه وهذه القواعد تتلخص فى وجوب التفريق بين الثابت والمتغير من أمور الدين وهاك هذه القواعد :

أولا : الله سبحانه وتعالى هو الحق وكل ما صدر عنه من خبر فهو صدق وكل ما صدر عنه من حكم فهو عدل كما قال تعالى : « **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** »[1] (وكلمة مفرد مضاف الى معرفة فتعم أى كلمات ، وصدقا أى فى الأخبار وعدلا أى فى الأحكام) فالكتاب الموحى به للنبى صلى الله عليه وسلم والسنة الموحى بها اليه أيضا كلها حق ومن ظن غير ذلك فقد كفر وهذه أول الثوابت .

---

(١) الانعام — ١١٥ —

ثانيا : القرآن نزل بلسان عربي ، والسنة نقلت الينا باللسان العربي وللعرب تصريف بليغ فى كلامهم ودلالات الألفاظ مختلفة أحيانا . والمعانى تختلف أيضا باختلاف صيغ التراكيب من التقديم والتأخير والحذف . وأفانين القول العربى واستخدامه لأنواع من الكنايات والتشبيهات والاستعارات كل هذا يجعل الحذق والفهم للنصوص القرآنية والحديثية متفاوتا عند الأفراد ولا يقول عاقل أن فهم الناس جميعا لنصوص الكتاب والسنة بدرجة واحدة وهو يشاهد ثقافتهم واستيعابهم وفهمهم لأساليب اللغة وتراكيب الكلام وأفانين القول ولهذين السببين تفاوت الناس فى الفهم هذا مع العلم أن الأصل واحد والحق واحد لا يتعدد . وهذه ثانية الفهم متغير بتغير الأفراد والحق واحد لا يتغير بل الفرد الواحد يتغير فهمه فى النص الواحد بتغير الزمان والوقت فأنت قد تفهم الآن آية على نحو ما،ثم تفهمها على نحو مخالف تماما فى وقت آخر . وقد تقرأ آية دهرا من عمرك ثم ينشأ لك فيها فهم جديد ما خطر ببالك قط.وهذا عمر ما كاد يسمع قول الله من فم أبى بكر الصديق « انك ميت وانهم ميتون »[1] حتى قال والله لكأنى ما سمعتها الا الساعة والحوادث فى هذا الباب كثيرة وليراجع كلّ منّا نفسه فى هذا والشاهد أن الفهم يتغير ويختلف باختلاف الأفراد والحالات والحق فى ذلك كله واحد لا يتعدد . والموفق الى الحق من

(1) الزمر — ٣٠ —

وفقه الله تعالى .

ثالثا : علوم الاسلام تنقسم الى قسمين بوجه عام قسم نستطيع أن نسميه القسم الثابت الذى لا يقبل التطوير ولا الاجتهاد ولا الاضافة وهذا القسم هو العقائد (مسائل الايمان) ، والعبادات (أركان الاسلام الأربعة) والأخلاق « مجموعة الفضائل الخلقية كالصدق والاحسان والشجاعة و . . . الخ) هذه الأمور هى الثوابت فى الدين ولا يجوز أن نجرى عليها قط أمور الاجتهاد والاضافة فصفات الله سبحانه وتعالى والملائكة والجنة والنار واليوم الآخر وعذاب القبر وغير ذلك من مسائل الغيب لا وجه فى هذا مطلقا لأى اضافه جديدة لأنه لا وصول الى علم جديد فى هذا الا بالوحى ولا وحى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا هو خلافنا الأساسى مع التصوف . فالمتصوفة قد ركزوا ترهاتهم وخزعبلاتهم وكشوفاتهم المزعومة فى كشف حقائق هذه الأشياء فى ظنهم ولذلك يقول قائلهم: اطلعنا على الجنة والنار ورأينا كذا وكذا مما لم يخبر به الرسول ويقول الآخر: أصعدنى الله الى سماواته فرأيت كذا وكذا ويقول الآخر: التقيت بالملائكة وشاهدت كذا وكذا ويقول الآخر: نزلت الأرض السفلى ورأيت وسمعت الخ هذه الافتراءات والخزعبلات وهذا الباب الغيبى لا يفتح أصلا الا بالوحى ولا وحى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما العبادات أيضا فلا يجوز الاضافة فيها لأن الاضافة فيها مبطلة فالصلوات من فرائض ونوافل لا يجوز الزيادة فيها على المشروع فركعة مضافة على الركعات الاربع يبطل الصلاة واستحداث نافلة لم تكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يصدق عليها قوله صلى الله عليه وسلم «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1] وكذلك اضافة هيئات جديدة أو صور جديدة لأى نوع من أنواع العبادة .

باختصار ، لا جديد في الصلاة والصوم والحج وفى فرضيات الزكاة ويجب أن يبقى كل ذلك على الصورة والنحو المشروع .

كذلك الأخلاق وتربية النفس لا يجوز تغير هذه الموازين والا اختل نظام الأخلاق وأصبح الحق باطلا والباطل حقا .

هذه الأمور الثلاثة هى من قسم الثوابت فى الدين وكل اضافة فيها تدخل فى أبواب الابتداع . وان كان هناك ثم ثم اجتهاد فيها فهو اجتهاد فى الأخطاء والضرورات التى تقع لبعض الأفراد كمن نسى ففعل كذا أو أخطأ ففعل كذا أو اضطر ففعل كذا ففي هذه الأبواب من الخطأ والنسيان والضرورة ينحصر اجتهاد المجتهدين وكل ذلك في هذه الأبواب الثلاثة : (العقائد ، والعبادات ، والأخلاق) .

« ١ » البخاري ومسلم وابن ماجه

رابعاً : (الانسان مدني بالطبع) هذه الكلمة التى أطلقها ابن خلدون تصف حقيقة بشرية وهى أن البشر يحتاجون أن يعيشوا في مدن وفي تجمعات . ومع اجتماع البشر وتكاثرهم ونماؤهم تتعدد معاملاتهم وتعظم مشكلاتهم وينشأ أحياناً الصراع بينهم بدلاً من التعاون في سبيل حفاظهم على ذواتهم أو حبهم لها ووسط هذا التعاون الضرورى والصراع الدائم تتشابك المعاملات وتختلف المصالح ولو خلى الله بين البشر وأنفسهم لأكل بعضهم بعضاً ولساد قانون الغاب ولكن الله من رحمته أرسل الرسل معلمين وهادين ومرشدين وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط والموازين التي أنزلها الله قاضية بالعدل بين الناس وقد أكمل الله أصول هذا العدل في كتابه القرآن وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك نزل ما ينظم علاقة الرجل بالمرأة والمسلم بأخيه من بيع وهبة والحاكم بالمحكوم والمجتمع بالمجرم الخارج عليه . وكل ذلك في نظام بديع لو أقامه الناس لأقاموا سعادتهم على الأرض .

والنصوص القرآنية والحديثية التى نزلت فى هذه المعاملات كانت بمثابة الضوابط والأصول العامة والاطار الذى يضيء للمسلمين الطريق ويسمح لهم أن يشرعوا لأنفسهم على هديه كلما جد لهم جديد مع أنفسهم أو مع أعدائهم . وهذا هو

أعظم المتغيرات فى هذا الدين ولكنه ليس متغيرا مطلقا ولكنه متغير وفق ثوابت من القواعد العامة والحدود الفاصلة بين الحلال والحرام والمطلوب والممنوع .

والمهم أن باب المعاملات باب عظيم من أبواب الاجتهاد وذلك لاتساع شئون المعاملات وتعددها وتغيرها بتغير الزمان والمكان والناس ونستطيع أن نقول أن هذا الباب اذا عرفت أصوله وحدوده المنصوص عليها فى الكتاب والسنة واستطعنا أن نستوعب حاجة المسلمين ومشكلاتهم اليومية فى شئون حياتهم المختلفة من سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية استطعنا أن نصل إلى اجتهاد سليم والى رقى دائم وسير سليم فى ظل نظام الاسلام وقانونه . وهذه مشكلة المشاكل أيضا وذلك أن الثابت من أبواب الاسلام العلمية (العقائد ، والعبادات ، والأخلاق) لا يشكل مشكلة لأنه واضح قريب الفهم قليل الاختلاف فيه . وأما شئون المعاملات والسياسة والاقتصاد والاجتماع فهو مع ثبات أصوله متغير تغيرا عظيماً جدا فأحوالنا السياسية تتغير كل يوم وتحتاج الى اجتهاد جديد مع هذا التغير وكذلك معاملاتنا الاقتصادية فنحن لا نعيش فى العالم بمفردنا بل يشاركنا فيه أمم وشعوب كثيرة ولها معاملاتها ولهم ضغوطهم علينا فما الواجب معهم؟أكتب هذه الرسالة وهذه مشكلة البترول قائمة ومنا من يقول يجب إدخال البترول فى المعركة

ومنعه عن الدول التى تساعد اسرائيل ويقول آخرون لو منعناه انتهت الحضارة ودمرنا العالم وهذا افساد فى الأرض والله لا يحب الفساد ويقول آخرون بل لو منعناه حاربَنا الأعداء واستولوا عليه وخسرناه ... الخ وكل هذا يحتاج من علماء المسلمين وان لم يكن لهم اليوم فى تصريف شئون بلادهم شيء يذكر - الى اجتهاد ومشاركة لأنه من باب النصح للأمة كما قال رسول الله : « الدين النصيحة ثلاثا قلنا لمن : قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] فمن النصح لعامة المسلمين تقديم النصح لحلول هذه المشاكل الذى لا تصيب واحدا منا فقط بل تقع على الأمة كلها وهذه المشكلة واحدة من آلاف المشاكل الاقتصادية التى نواجهها الآن وكل هذه المشاكل تحتاج من المسلمين الى فهم وعلم واجتهاد . وهذا الفهم كما أسلفنا القول مرارا يجب أن يكون فى اطار النصوص والقواعد والحق الذى أنزله الله سبحانه وتعالى . وهذا الاجتهاد فى هذه الأمور (المعاملات) هو أعظم المتغيرات فى هذا الدين . وهو بالطبع متغير يخضع الى الثابت الذى أنزله الله سبحانه وتعالى وتكلم به رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه مسلم

مشكلات تعترض طريقنا

بالرغم من حاجتنا الماسة الى العلماء المجتهدين العاملين المخلصين والى سواد الأمة الذى يخلع ربقة التقليد للعلماء ويطالب بالدليل ويسير خلف العلماء على بصيرة فيطالبهم بالحجة ويناقشهم الرأى ولا يسير خلفهم كالسائمة . أقول بالرغم من هذه الحاجة الملحة لتخرج الأمة من سباتها الطويل ، وتبعيتها الطويلة للمفسدين فى الأرض من حكام السوء الذين أذلوها بسوط الطغيان ، وحكموها بشريعة الشيطان بالرغم من كل ذلك فان هناك عقبات تقف فى طريقنا وأهم هذه العقبات ما يلي

أولا : الانفصال الذى حدث فى الأمة بين الحكم والشريعة . فمنذ سقوط الخلافة العثمانية – وان كانت فى آخر أيامها حكما ظاهريا بالاسلام – والبلاد الاسلامية تحكم بقوانين وضعية منافية لحكم الله وبالرغم من أن هذا التبديل لم يمر عليه غير نصف قرن فقط فانه قد نشأ جيل جديد من أبناء المسلمين يعادى الاسلام أو على الأقل يجهل شريعته . وهذه الخمسون سنة الأخيرة قد أحدثت آثارا مدمرة فى البشرية جميعا فالتحولات

الاجتماعية والسياسية والعقائدية سريعة جدا فقد حدث فى هذه الحقبة حربان عالميتان اندثرت فيها دول وحضارات وقامت دول أخرى وتبدلت القوانين والأخلاق والعقائد تبدلا كاملا فى كل ناحية من نواحى الأرض تقريبا .

ولا يكاد الناس يلاحقون اليوم التحولات السياسية والعقائدية والفكرية وهذه التحولات بالطبع يتبعها القانون والتشريع فما كان حراما بالأمس أصبح مباحا بل مستحبا اليوم والعكس بالعكس ووسائل التأثير على الناس قد تطورت تطورا سريعا فأين خطبة الجمعة المحدودة (من البث الاذاعى والتلفزيونى) ، وأين (الكتاب) من المدارس والجامعات التى تنشر المبادئ الجديدة وأين من المخطوطات القليلة التى كانت تتداولها الأيدى ما تقذف به المطابع اليوم من ملايين الأطنان من الصحف والكتب والنشرات وعامة ما تقذف به يهدم العقائد القديمة والأخلاق والشرائع . هذا كله الى سياسة عليا للدول تسير فى اتجاه إلى المادية وصراع على البقاء . هذا العالم الذى نعيش فيه والذى يغير جلده مع مطلع كل شمس ، ويغير عقائده ومناهجه وتشريعاته ونظمه وأخلاقه وسياساته كما يغير ألوان الملابس والسيارات أصبح عالما سمته الأساسية التغيير وليس نحو الأفضل وانما التغيير للتغيير فليس هناك وقت للمفاضلة بين الفاضل والأفضل أو بين الجيد والردىء .

وعلماء الاسلام يجدون أنفسهم اليوم وسط هذه الدوامة المدمرة وليس فى أيديهم من وسائل الاتصال بالناس الا وسائل اعلامية محدودة كخطبة أو درس فى مسجد أو صحيفة محدودة لا يقرؤها الا نفر يسير وقد حجب الناس عنهم بتلك الوسائل الاعلامية الضخمة التى يملكها الباطل وتسير فى ركاب الشيطان . ثم وهؤلاء العلماء لا يجدون من الأوقات ما يتفرغون به على الرد على الشبهات أو ملاحقة ما يقذفه أهل الباطل من شكوك وظلمات ولذلك تعطلت فاعلية الاجتهاد وقل رجاله بل ندروا وأصبح المجال مفتوحاً أمام روّاد الباطل ومروجى الخرافات .

وهكذا أدى انفصال السياسة والحكم عن الدين الى انزواء علماء الشريعة ووضع شأنهم وانشغالهم بتحصيل عيشهم وقوت أولادهم عن النظر فى الدين والعلم والحياة . فلا نجد عند أحدهم فرصة لقراءة صحيفة أو متابعة لأخبار الناس وتحولاتهم أو معرفة لعقائدهم وسلوكهم وبذلك ظهر علماء الشريعة وكأنهم يعيشون فى غير عصورهم ويتكلمون مع غير بني جنسهم .

ولو كانت السياسة والحكم تسير فى ركاب الدين لكان لعلماء الشريعة شأن آخر وذلك أنهم سيستشارون ويؤخذ رأيهم فى مشاكل الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسيكون لهم شأن آخر فسيطّلعون على أحوال الناس ويشاركون فى

توجيههم وارشادهم ، ولكن السياسة أهملتهم بل واحتقرتهم وازدرتهم فهانوا على الناس ثم هانوا على أنفسهم وانشغلوا بتحصيل العيش . وانصرف الناس عنهم وجمدت بذلك عجلة الاجتهاد وهذه أولى مشاكلنا ولا حل لها الا برواد مخلصين من علماء الشريعة يهبطون الى ميدان الدعوة ويصارعون الباطل بالحق والسياسة المنحرفة بالسياسة الشرعية ، وذلك حتى تعلو كلمة الحق على كلمة الباطل ، وفى جهادهم هذا وسعيهم هذا سيضطرون الى الاجتهاد لمعرفة حكم الله فى مشاكلهم الحادثة ، وبذلك يروج سوق الشريعة فهما وعملا وتطبيقا واستنباطا .

ثانياً : عندما انفصل الحكم عن الاسلام ، وأصبح الحكم دنيويا جبريا يسعى أصحابه للبقاء فيه بكل وسيلة ، ويسترضون الناس بكل طريق ، ويبطشون بأعدائهم فى غير رحمة ، وكان مع ذلك سواد الشعب مسلمين يحبون الاسلام وان كانوا يجهلونه فان كل حاكم عمد الى استئناس طائفة من أهل العلم بالشريعة فسلمهم مناصب دينية فى دولته وسلطهم حربا على كل داع بحق الى نهضة اسلامية ترجع الشريعة الى نصاب الحكم والحاكم الى ميزان العدل . وعمد هؤلاء المستأنسون الى حرب الداعين الى الاسلام بحق فلم يجدوا من فرية يلصقونها بهم الا أنهم خارجون على اجماع الأمة ومحاربون للأئمة .

ومبتدعون بالدعوة الى الاجتهاد ويزعمون أن الأئمة الأربعة قد كفوا الناس مؤونة الاجتهاد فما من حكم الا وقد دونوه وتكلموا فيه . وما هذا الداعى الى الاجتهاد الا مفتر على الأئمة كاره لهم ، وبذلك ثوّروا العامة على العلماء المخلصين والدعاة الهادين المهديين ، ويكفى عند عامة الناس أن يقال أن فلانا يكره الأئمة الأربعة أو ينتقص من شأنهم حتى يقوموا فى وجهه من غير تروّ ولا فهم ويرموه بكل نقيصة وبذلك ينصرف الناس عن دعوته ويسلم لأهل السياسة ما أرادوا ولعلماء السوء ما سعوا . والعجب أن الفرية اذا تناقلتها الألسن قد يقع فيه الصالحون من الناس وبغفلة منهم وظن أن العدد الكثير من الناس لا يقع فى خطأ وبذلك يعظم تصديق الفرية لرؤية بعض الصالحين يقول بها ، وقد يكون قوله بها ما كان الا غفلة وتهاونا .

المهم أن أصحاب النوايا السيئة لا يعدمون كذبا وافتراء ولا ينفكون عن رمى بالعقبات التى تحول دون استرداد الأمة لعافيتها التشريعية والايمانية والعلمية . ولن يكون ذلك الا بعلماء عاملين مجتهدين ، وبعامة واعية تطالب علماءها بالدليل والحجة وتسير خلفهم ببصيرة ووعى وبذلك يضيق الخناق على أهل الباطل وينكشف أهل السوء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب وليس من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويلبسون للناس الحق بالباطل ، ويكتمون ما أنزل

الله من الكتاب ويعطون لكل ظالم من الحكام ما أراد من فتوى وحكم ملبسين اياه آيات من القرآن واحاديث من أحاديث سيد الأنام عليه السلام ولا ينكشف هؤلاء الأفاكون الا بالشعوب الواعية التى تميز به الحق والباطل والصحيح والزائف ، ولا يمكن للأمة والشعب أن يملك هذا التمييز الا اذا عرف الطريق الى الكتاب والسنة وكيف يطالب الدليل وكيف يفهم الدليل ، وكيف يكتشف صدق العالم وكذبه ، وكيف يميز بين الصادقين المخلصين وبين الكاذبين الزائفين . وبذلك تتخلص الأمة من المنافقين وتتمسك بالمؤمنين ويروج سوق العلم والاتباع ويكسد سوق الجهل والتقليد .

وهذا من أسباب الحاحنا على الناس فى طلب الحق والدليل والتثبيت فى كل خبر وتمحيصه والرجوع الى مصادره وناشريه وبهذا الوعى والفقه ينشأ جيل جديد يتربى على القرآن والسنة ويعرف كيف يرتبط بالدليل والحق لا بالرجال والتقليد ويعرف كيف يميز بين الكذب والصدق وبين الاشاعة والدعوة وبين التهريج والبناء .

مَنْ الأئمة الأربعة ؟ وما موقفنا منهم ؟

بالرغم من أن الاسلام قد شهد آلافا تلو الآف من العلماء العاملين والفقهاء المخلصين وكان هذا جيلا إثرْ جيل منذ الصحابة رضوان الله عليهم الى يومنا هذا لم يمر على الناس زمان الا وقائم لله على الناس بحجة . أقول بالرغم من كل هذا فقد اشتهر عند الناس أربعة فقهاء ولد أولهم فى أواخر القرن الأول وتوفى آخرهم قبل منتصف القرن الثالث أى أنهم عاشوا جميعا فى حقبة واحدة تبلغ قرنا ونصف ، مائة وخمسين عاما فقط . فما السبب فى شهرة الأئمة الأربعة ؟ ولماذا انحصر أمر الفقه عند عامة الناس فيهم ؟ وما موقف الأمة من هؤلاء الأئمة رحمهم الله ورضى عنهم ؟

أول هؤلاء الائمة مولدا هو الامام النعمان بن ثابت والمكنى بأبى حنيفة **رحمه الله** ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٥٠ هـ ونشأ بالكوفة واشتهر بالفقه والرأى ، حاول عمر بن هبيرة أمير العراقين أن يوليه القضاء فامتنع ، ثم حاول معه أبو جعفر المنصور أن يتسلم القضاء فأبى فحبسه الى أن توفى فى حبسه رحمه الله ورضى عنه . اكتسب عيشه بتجارة

الخز وأمضى حياته معلما مرشدا فى الكوفة وبغداد ورزقه الله مجموعة صالحة من التلاميذ والأتباع أخذوا العلم عنه ودوّنوا ما كتب كان منهم أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى وزفر بن الهذيل . وأعظم ما أشتهر به الأمام أبو حنيفة إعمال الرأى والقياس واقامة الحجة على رأيه وما يذهب اليه حتى ليقول عنه مالك الامام الثانى – «رأيت رجلا لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته»[1] والمعنى لو قلت له أثبت أن هذه السارية ذهبا لأتى بحجج يقنعك بها . وهذه مبالغة لوصف إقناعه وقوة حجته . وقال فيه الشافعى أيضا «الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة»[2] وكان منهجه فى درسه – رحمه الله – أن يجتمع بهم فى المسجد ويلقى عليهم المسألة ثم يذهبون للبحث فيها ثم يجتمعون فيدلى كل منهم بدلوه ويقول رأيه ثم يكر الإمام على آرائهم بالنقد والتعديل أو الابطال ثم يقول رأيه ويكتب تلاميذه ، وكثيرا ما نهاهم عن كتابة كل آرائه حيث يقول لتلميذه أبى يوسف «ويحك يا أبا يعقوب لا تكتب عنى كل ما أقول فاننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا ونقول القول غدا ونرجع عنه بعد غد»[2].

وقد لجأ الإمام أبو حنيفة الى استخدام الرأى كثيرا وذلك للنصوص الصحيحة القليلة التى تيسرت لديه ولذلك سميت مدرستُهُ الفقهية مدرسة الرأى وقد جابهت هذه المدرسة نقدا

«١» وفيات الأعيان (٥ – ٤٢)
«٢» ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء»
«٢» " " "

وهجوما شديدين من مدرسة النص التى بدأت مع بروز نجم الامام مالك بن انس رضى الله عنه ثم اشتهرت وطبقت الآفاق ببروز نجم الامام الشافعى رضى الله عنه ثم بلغت ذروة مكانها على يد الإمام أحمد بن حنبل . وذلك أن الإمام مالك بن أنس جمع الموطأ وقد عده العلماء أصح كتاب بعد القرآن فى دقته ثم تيسر للشافعى الذى درس الموطأ وتتلمذ على مالك نصوصا أخرى من الحديث الصحيح ثم جمع الإمام أحمد كتابه الفذ المسند وضمّنه خمسا وثلاثين ألف حديث فكان وما زال أوسع مرجع جمع السنة وكان لهذا الجمع الأثر البالغ فى القضاء على كثير من الآراء التى تبنتها مدرسة الرأى باجتهادها وخالفت فيها الحديث الصحيح .

وبعد هذا الاستطراد فى بيان مدرسة الرأى ومدرسة النص نعود للامام الثانى من الأئمة الأربعة وهو الإمام مالك رحمه الله ولد مالك سنة ٩٣ هـ وتوفى سنة ١٧٩ أى بعد وفاة الامام أبى حنيفة بتسع وعشرين سنة نشأ مالك فى المدينة المنورة محبا للعلم مقدسا للسنة معظما للنبى صلى الله عليه وسلم ولم يكد يبلغ عشرين سنة حتى شهد له أهل العلم أنه أهل للفتيا والاجتهاد . جمع مالك الموطأ باشارة من المنصور العباسى الذى أراد أن يتخذه قانونا ليجمع الناس عليه فأبى مالك وأخبره أن العلم قد تفرق فى الأمصار وهو قد جمع ما صح عنده

وبلغه فقط ولذلك أبى حمل الناس عليه . ولم يسلم مالك من مشاكل الحكام فقد وشى به الى جعفر عم المنصور العباس فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه . . وكان يعتمد رحمه الله على الطريقة الالقائية فى درسه ولا يحب أن يقاطعه أحد وهذا تماما ضد الطريقة التى اعتمدها الامام أبو حنيفة وبالرغم من أنه درس الفقه على شيخه ربيعة بن عبد الرحمن الذى يكثر من الآراء حتى سمى (ربيعة الرأى) فان مالك كره الرأى حتى أنه يقول وددت لو ضربت بكل رأى أفتيت به سوطا وأكون فى حل يوم القيامة . واشتهر صيت مالك وذاع وأتته الوفود للعلم والاستفتاء من بلاد المغرب والأندلس ودون فقهه تلاميذ مجدون . وكان لكتابه الموطأ أثر بالغ فى الرجوع الى النصوص والعناية بالسنة . ولكنه رحمه الله قدّس عمل أهل المدينة ولذلك رد به خبر الواحد الصحيح[1] وقد خالفه كثير من أهل السنة والحديث لذلك ورأوا أنه لا فضل لأهل المدينة فى العلم على غيرهم ولا يجوز أن يرد فعلهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيح .

وكان من أعظم حسنات وبركات الإمام مالك تلميذه الشافعى رحمه الله هذا التلميذ النجيب الذى حفظ الموطأ وقرأه على مالك وأفتى الناس وهو ابن خمس عشرة سنة ويشهد له مسلم بن خالد بذلك فيقول له : (أفت يا أبا عبد الله

« ١ » اقرأ حول الموضوع رسالة « حديث الاحاد حجة في العقائد والاحكام » لفضيلة شيخنا محمد ناصر الدين الألباني

والله آن لك أن تفتى)[1] وتنقل الشافعى بين مكة والمدينة وبهر الناس بعلمه بالقرآن وبراعته فى الفقه وحذقه بالسنة ، وحلاوة منطقه وسلامته حيث لم تؤخذ عليه لحنة قط حتى ان رجلا كالامام أحمد يدخل المسجد الحرام فيجلس اليه فى درسه فيأتيه محفوظ بن أبى توبة البغدادى فيقول له : يا ابا عبد الله هذا سفيان بن عيينة فى ناحية المسجد يحدث فيقول له احمد : ان هذا يفوت وذاك لا يفوت .

وطوف الامام الشافعى ببلاد العالم الاسلامى فسافر الى العراق وناظر تلاميذ الامام أبى حنيفة كمحمد بن الحسن الشيبانى وزفر وذكروا أنهما رجعا عن ثلث مذهب الامام أبى حنيفة الى اجتهاد الامام الشافعى ورأيه . وبذلك تعلم أن الأئمة رحمهم الله وتلامذتهم كانوا طلاب حق لا طلاب تقليد .

وأحب الامام أحمد بن حنبل قرنه واستاذه الامام الشافعى حبا عظيما ولم يسلما من خلاف فى بعض الآراء الفقهية كخلافهم فى حكم تارك الصلاة ، وحكم العائد فى هبته ، وتناظرا فى مسائل كثيرة واستفاد الامام الشافعى من صحبة الامام أحمد كثيرا من الأحاديث الصحيحة ، وكان الشافعى يقول له : « أنت أعلم بالحديث منى فما صح عندك فأخبرنا به لنعمل بمقتضاه »[2] ثم سافر الامام الشافعى رحمه الله الى مصر واستقر

« ١ » مناقب الشافعي للبيهقي « ٢ » ابن عبد البر في الانتقاء ـ ٧٥ ـ

بها وكان سفره الى هناك خيرا وبركة للمصريين الذين التفوا حوله وأخذوا عنه . وتوفى رضى الله عنه سنة ٢٠٤ أى فى أوائل القرن الثالث الهجرى . ولما بلغ الامام أحمد خبر وفاته حزن عليه حزنا شديدا وبكاه بكاء مرا حتى أن ابنه عبد الله يقول له لما رأى من تأثره وبكائه يا أبت أى رجل كان الشافعى . فقال يا بنى : « كان الشافعى كالشمس للدنيا . والعافية للبدن . فانظر هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض »[1] وهذا منتهى الوفاء والاخلاص ويقول أيضا الامام أحمد فى صديقه الشافعى وأخيه واستاذه « ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه الا عندما جالست الشافعى »[2] ويقول : ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى واستغفر له . هذه شهادات عظيمة من الإمام الجليل أحمد بن حنبل للامام الجليل الشافعى وهى تكفى عن كل شهادة سواها .

ورابع الأئمة من حيث الزمن هو الامام أحمد بن حنبل الشيبانى ولد فى ربيع أول سنة ١٦٤ هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٤١ هـ فى ربيع الأول أيضا يوم جمعة وهو عربى الأب والأم .

بدأ الإمام أحمد بطلب علم الحديث صغيرا وسمع من شيوخه ببغداد ثم سافر فى طلب الحديث الى الحجاز ثم اليمن وحج مرات ماشيا وابتدأ فى تدوين ما سمع حتى اجتمع له من الحديث شىء كثير جدا واشتهر بين الناس بصلاحه وتقواه .

« ١ » الوفيات / ٢ ــ ٣٠٥ / « ٢ » الوفيات ٣ــ٣٠٥

وتعففه وقناعته ونظافة ثيابه ومظهره حتى أصبح مضرب المثل مظهرا ومخبرا وعلما وبذلك ذاع صيته وانتشر فى الآفاق وتمسك فى افتائه دائما بالحديث ولم يعمل الرأى الا نادرا بل كان يكره الرأى مطلقا ويقول : « الحديث الضعيف عندى خير من الرأى »[1] وقال الخلال تلميذ أحمد عنه : « كان أحمد قد كتب كتب الرأى وحفظها ثم لم يلتفت اليها »[2] ومع ذلك كان أحمد معجبا بالشافعى جدا محبا له كما مر ليس لاشتهاره بالرأى ولكن لفهمه للنصوص ، واستنباطه منها .

وهذه الدراسة الحديثية الواسعة للامام أحمد لم تجعله فقط ملما بأحكام الاسلام العملية وانما برز فى فهم عقائد الاسلام ومسائل الايمان ولذلك تصدى بالرد لكل انحراف فى عصره فى العقيدة أو السلوك فأنكر على رواد الصوفية فى عصره الذين بدأوا يتكلمون فى الوساوس والخواطر ورد على الزنادقة ، وحارب الجهمية النافين للصفات ، ووقف صلبا شامخا أمام المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن وأرادوا حمل الناس على ذلك بعد اغراء الخليفة المأمون .

وفى هذه الفتنة الاخيرة فتنة خلق القرآن صبر الامام أحمد مع نفر قليل من اخوانه وتحمل السجن والتعذيب والضرب وناظر رئيس المعتزلة . ابن أبى داؤد أمام الواثق بالله ، وأظهر الله بالامام أحمد الحق وزهق باطل المعتزلة ولم تقم لهم قائمة بعد هزيمتهم أمامه .

« ١ » الايقاظ ـ ١١٧ ـ
« ٢ » الايقاظ ـ ١١٧ ـ

باختصار أصبح الامام أحمد امام أهل السنة والجماعة في وقته بلا منازع وبقى أستاذا لكل من جاء بعده وكان من بركاته وخيراته أساطين علم الحديث بعده : البخارى ومسلم وابو داود فهؤلاء تلاميذه ومن أخذوا عنه . وبذلك كان الامام أحمد أمة وحدة واستاذا لأهل الحديث ومعلما لأهل السنة .

وكان يوم وفاته يوما مشهودا خرجت بغداد كلها برجالها ونسائها تودعه ليس المسلمين فقط بل وأيضا اليهود والنصارى وأسلم منهم فى هذا اليوم أكثر من عشرين ألفا ، ولم يبق أحد الا وبكاه .

هذه لمحة سريعة للأئمة الأربعة رضى الله عنهم ورحمهم تبين لك أنهم جميعا كانوا اخوة فى هذا الدين ملتزمون بالحق قولا وعملا . أخذ بعضهم عن بعضهم وناظر بعضهم بعضا ولم يتعصب أحد منهم لرأيه . وما دعا أحد منهم الناس الى اتباعه بل جميعهم نهوا تلاميذهم عن تقليدهم وأمروهم باتباع الحق والدليل . كما قال أحمد لتلميذه : « لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الأوزاعى ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا »[1] يعنى الكتاب والسنة . وأقوال الامام أبى حنيفة فى هذا الصدد كثيرة جدا ، وكذلك قول الشافعى ومالك فالأئمة الأربعة جميعهم سلفيون بمعنى السلفية أى أنهم متمسكون بالدليل باحثون عن الحق غير

« ١ » الايقاظ — ١١٣ — وابن القيم في الاعلام ٢—٣٠٢

مقلدين ولا داعين للناس الى تقليدهم والأخذ عنهم دون فهم وعلم . بل قد حرّم الامام أبو حنيفة أن يفتى أحد بقوله الا اذا علم دليله حيث يقول : «حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بقولى» وبذلك خلّف لنا الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم تراثا باهرا من العلم والفقه والاستنباط والأحاديث واسهموا أيما إسهام في دفع عجلة الفهم لهذا الدين .

ولقد كان السبب فى اشتهارهم وحدهم دون كثير من معاصريهم الذين جمعوا علوما وفقها يسامى علوم الأئمة كالأوزاعى والليث بن سعد وأبو ثور وغيرهم أن الله قد قيّض للأئمة الأربعة تلاميذاً مخلصين حفظوا علمهم ودونوه ونشروه . وأما أولئك فقد درس كثير من علومهم وفتاويهم .

ولهذه الشهرة فى العالم الاسلامى ولمجىء أوقات عصيبة بعد ذلك ضعفت فيها الدولة العباسية وابتدأت حركة التمزيق والانفصال فى عهد الخلافة ، وبروز الشعوبية والأهواء والنحل وكثرة الفتاوى الباطلة التى يسترضى بها السلاطين والأمراء وقف بعض الناس يريد أن يوقف طوفان الآراء والاجتهادات الباطلة فنادى فى الناس أن لا فقه بعد الأئمة الأربعة ولا يجوز لانسان أن يفتى بخلاف رأيهم ولا أن يخترع جديدا وظن الذين أطلقوا هذا القول أن الناس سينتهون عن الافتاء ولكن هيهات فقد عقبت هذه الفتوى وهى القول بقفل باب الاجتهاد وانحصار الفقه

فقط فى الأئمة الأربعة اضرارا عظيمة نحصرها فيما يلى :

أولا : القول بالتقليد وترك البحث عن الدليل وبذلك تعطل الفقة والفهم وانحصر هم طلاب العلم فى معرفة أقوال امامهم فقط دون النظر فى أدلته ومقارنتها بأدلة الأئمة الآخرين .

ثانيا : التعصب والتنافس بين تلاميذ المذاهب المقلدين والذى دفعهم الى الوقيعة والتباغض والتقاتل والتاريخ شاهد بذلك بل وترك الصلاة وراء بعضهم البعض . فقد ترك مقلدوا كل مذهب الصلاة خلف مخالفيهم فى المذهب .

ثالثا : القول بأن الآراء المختلفة والمتناقضة فى المسألة الواحدة كلها حق وهذا أمر يحيله العقل لأن الشيء الواحد اما أن يكون اسود أو أبيض أو حلالا أو حراما ولا يمكن أن يكون الشيء الواحد حلالا وحراماً فى وقت واحد ولشخص واحد . أو يكون الشيء الواحد باطلا وصحيحا . . . . وكل هذا أتى من القول بالتقليد الذى استلزم القول بصحة الاقوال والاجتهادات*التى صدرت عن الأئمة جميعا .

رابعا : حرمان الأمة من كثير من الأقوال الصحيحة والنصوص الصحيحة التى خالف الأئمة الأربعة فيها مجتمعين الحديث الصحيح كطلاق الثلاث هل يقع ثلاثا أو طلاقا واحدا فبينما يقول الأئمة الأربعة جميعا أنه يقع ثلاثا وبذلك

من قال لأمرأته (أنت طالق ثلاثا) فانها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره . مع العلم أن الحديث الصحيح بخلاف ذلك فقد كان الطلاق ثلاثا يقع واحدا فى زمن رسول الله وأبى بكر وصدرا من خلافة عمر . وهذه المسألة أفتى بها الامام ابن تيمية رحمه الله وكانت السبب فى اتهامه بالكفر والردة بناء على أن الدين فقط هو ما قاله الأئمة الأربعة وأنه ليس هناك دين وراء ذلك !

خامسا : حرمان الأمة من البحث والاستنباط عن احكام الوقائع المتجددة . وقد ذكرنا هذا فى صدر هذه الرسالة المباركة ان شاء الله وبذلك ركد الفهم وبار سوق الاستنباط والعلم بالكتاب والسنة . وسبب هذا فى النهاية عزل الشريعة عن حياة الناس والتقنين لهم .

سادسا : اتخاذ التقليد دينا أدى الى تشديد النكير على كل من قال بالاجتهاد ووحدة الفقه وأخوة الأئمة ووجوب الاخذ بعلمهم جميعا والترجيح بين أقوالهم واتهم كل من قال بذلك بمخالفة اجماع الامة والخروج على جماعتها ، والقول بأنه يسب الأئمة أو ينتقص مقدارهم ويحط من شأنهم .

سابعا : ظن الناس أنه يجوز لكل مسلم أن يأخذ رأى امام ما من الأئمة الأربعة ولو كان النص بخلافه وبذلك ارتكبت كثير من المخالفات .

ثامنا : نشوء ضعف الوازع الدينى وذلك بأن المكلف اذا وعظ بالآية وعلم أن هذا كلام الله أو ذكر بالحديث وعلم أن هذا كلام رسول الله كان لهذا شأن عنده بعكس ما لو قيل له هذا رأى الامام فلان أو الامام فلان وبذلك نشأ عند كثير من المسلمين ضعف الوازع الدينى والذى نشاهده فى التحايل على الأمور الشرعية .

تاسعا : نشأة التلفيق وهو الاتجاه الى جمع الرخص والتسهيلات الموجودة فى المذاهب وبذلك ينشأ التهاون وارتكاب كثير من المخالفات وذلك بتتبع الأقوال التى تناسب هوى كل انسان من كل مذهب ولو كان الاحتكام الى الدليل من الكتاب والسنة لما وجد هذا .

عاشرا : تعظيم الأئمة الى الحد الذى رفعهم الى نسبة العصمة لهم وعدم جواز الخطأ عليهم . ولذلك نرى كثيرا من العلماء لا يجرؤ أن يقول أخطأ الامام فى هذه المسألة مع العلم أنه يرى النص بخلاف الفتوى . وهذا التعظيم قد يصل ببعض الناس الى رد الآية المحكمة القاطعة الدلالة ، والحديث الصحيح الواضح المعنى خوفا من مخالفة الامام وهذا ان لم يكن شركا بالله فهو ذريعة الى الشرك وتقديم غير أمر الله على أمره .

هذه أضرار قليلة سردناها سريعا أصابت الأمة من القول بقفل باب الاجتهاد ووقوف الفقه والاستنباط عند حد الأئمة الأربعة فقط . وثمة أضرار أخرى لا يتسع لها المجال .

ولذلك كان لدعاة السلفية من هذه الدعوة موقف واضح وهو ما يوضحه بحول الله الفصل الآتى .

السلفيون والأئمة الأربعة

من هذا العرض السريع في الفصل السابق عن تاريخ الأئمة رضوان الله عليهم ومناهجهم وطرقهم في الاستنباط يتبين أننا نحب الأئمة ونقدرهم ونتبعهم لا كما يتخرص المتخرصون . بل الأئمة رضوان الله عليهم هم سادتنا وهم بعضٌ من سلفنا الصالح المشهود لهم بالخير والفضل، والأئمة الأربعة هم دعاة السلفية الحقيقيون عنهم أخذت مبادئ السلفية في اتباع النص وترك التقليد والسلفيون في كل العصور هم أولى الناس باتباع الأئمة واقتفاء آثارهم وفهم أقوالهم . وأسعد الناس حظا بذلك .

وأما المقلدون الذين يزعمون أنهم على مذهبهم فهم أبعد الناس عنهم لأنهم خالفوا هؤلاء الأئمة في نهيهم عن تقليدهم والافتاء بآرائهم دون معرفة دليلهم . فهؤلاء المقلدون الذين يزعمون اتباع الأئمة هم أولى الناس بعداوة الأئمة ورفض مناهجهم في التعليم والعمل . ولكن لتعصبهم وضعف عقولهم ووازعهم الديني تاجروا بأقوال الأئمة وتترسوا بهم موهمين الناس أنهم على طريقتهم ومذهبهم وما هم كذلك . لأن كل

امام قال : (اذا خالف كلامى كلام رسول الله فخذوا بكلام رسول الله وأضربوا بكلامى عرض الحائط)[1] ولم يقل أحد منهم بتاتا :(فضل الله وعلم الشريعة محصور فينا فقط ولا يأتي واحد بعدنا وليس أحد معاصرا لنا يعلم شيئا من الشريعة كما نعلم ولذلك يجب على الأمة جميعا تقليدنا فقط واتباع أقوالنا فقط ولا يجوز لأحد الخروج عن أقوالنا بحال) أقول ما قال أحد منهم ذلك ولا أفتى بذلك بل جميعهم رضى الله عنهم كانوا حربا على التقليد والجمود وكلهم دعاة الى الاتباع والأخذ بالدليل .

هذه خلاصة توضح الفرق بين الدعوة السلفية وغيرها من الدعوات في قضية الاجتهاد والتقليد وهذه الدعوة السلفية هى دعوة الاسلام والتسمية هنا اصطلاحية فقط ودعوة التقليد دعوة غير اسلامية لأنه لا نص عليها من كتاب أو سنة أو قول صاحب للنبي أو قول امام أو قول عالم يعتد بعلمه أو حتى عقل صحيح يميز بين الحق والباطل والنو ر والظلام . واذا كان الأئمة الأربعة أنفسهم هم حرب على التقليد فماذا بقى بعد ذلك ؟ واذا كان الأئمة الأربعة هم أساتذة السلفيين بعدهم والى قيام الساعة فماذا بقى بعد ذلك ؟ ! واذا علمنا في الفصل السابق مضار التقليد وآفاته فهاك هنا منافع وبركات القول بالاتباع والاجتهاد والأخذ بالدليل الذى هو خلاصة السلفية

« ١ » الايقاظ ـــ ١٠٤ ـــ

فبالرغم من أن الاتباع والاجتهاد والأخذ بالدليل شيء قد أُمرنا به شرعا فان له مع ذلك آثاراً طيبة ومميزات كثيرة وبركات عظيمة على الفرد والأمة ـ ومن هذه البركات والثمرات ما يلي :

١ - المحافظة على وحدة الأمة ونبذ التعصب لبعض الرجال دون بعض الآخر وبذلك لا يكون هناك مذاهب ـ أربعة أو خمسة بل مذهب واحد وطريق واحد هو طريق الكتاب والسنة ويكون الأئمة وغيرهم من العلماء العاملين منارات على هذا الطريق الواحد ودعاة الى هذا الطريق الواحد وتكون أقوالهم وآراؤهم مقبولة طالما هى موافقة للنصوص المعصومة من الخطأ ، نصوص القرآن والسنة الصحيحة .

٢ - ربط الأمة بالكتاب والسنة وبذلك يعظم الوازع الدينى لأنه شتّان بين من يذكر بكلام الله وكلام رسوله ومن يذكر ويوعظ بكلام آخر .

٣ - بناء الفرد المسلم بناء صحيحا سليما وذلك بتعويده طلب الحق . والمطالبة بالدليل وبذلك يعمل عقله وقلبه ويكون فى كل أموره باحثا عن الحق لا مقلدا للرجال وبذلك يعظم الحق فى عينه ويتعلم كيف يميز بين الأقوال .

٤ - اذا كان الأصل فى معرفة الدين هو الدليل والنص الكتاب والسنة راجت سوق العلم بالكتاب والسنة وارتبط

الناس بأصول الدين ارتباطا حقيقيا وأما اذا كان العكس وارتبط الناس بالأقوال والآراء ضعفت الاستفادة من الكتاب والسنة وأصبحت قراءة القرآن والحديث للبركة فقط لا للعلم والتدبر والفقه وبذلك نخالف كلام ربنا الذى قال : «**كتاب أنزلناه اليك ليدّبروا آياته وليذّكر أولو الألباب**»[1] فأين من أخذ العلم من الكتاب والسنة والبحث عن الدليل عمن أخذه من الأقوال والآراء المنسوبه للعلماء وقد تكون النسبة صحيحة وقد تكون النسبة خاطئة .

٥ – هذه بعض بركات فتح الأبواب الى الكتاب والسنة والأخذ بالدليل وترك التعصب والتقليد . فهل بعد ذلك يلام الداعي الى هذا ؟ وهل جاء الرسول صلى الله عليه وسلم الا ليدعونا الى هذا وهل يستوى من يتبع المعصوم ممن يقلد غير المعصوم ؟ !

وبعد فهذه عقيدتنا ودعوتنا ليست بدعا ولا ابتداعا وإنما هى دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهى دعوة الاسلام وهى المنهج والطريق الذى سار عليه الصحابة رضوان الله عليهم الذين شهد الله لهم بالخير والفضل ودعوة الأئمة الأربعة وغيرهم من صالحي هذه الأمة الذين أحبتهم الأمة وشهدت بامامتهم لتقديسهم الحق ودعوتهم الى الكتاب والسنة ونحن على هذه العقيدة والمنهج بحول الله،نسأل الله

«١» ص ـــ ٢٩

أن يحيينا عليه وأن يميتنا عليه وأن يثبتنا عليه حتى نلقاه والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بـه .

من منشورات الدار السلفية

١ - الفكر الصوفي على ضوء الكتاب والسنة .

عبد الرحمن عبد الخالق

٢ - الخمر وسائر المسكرات .

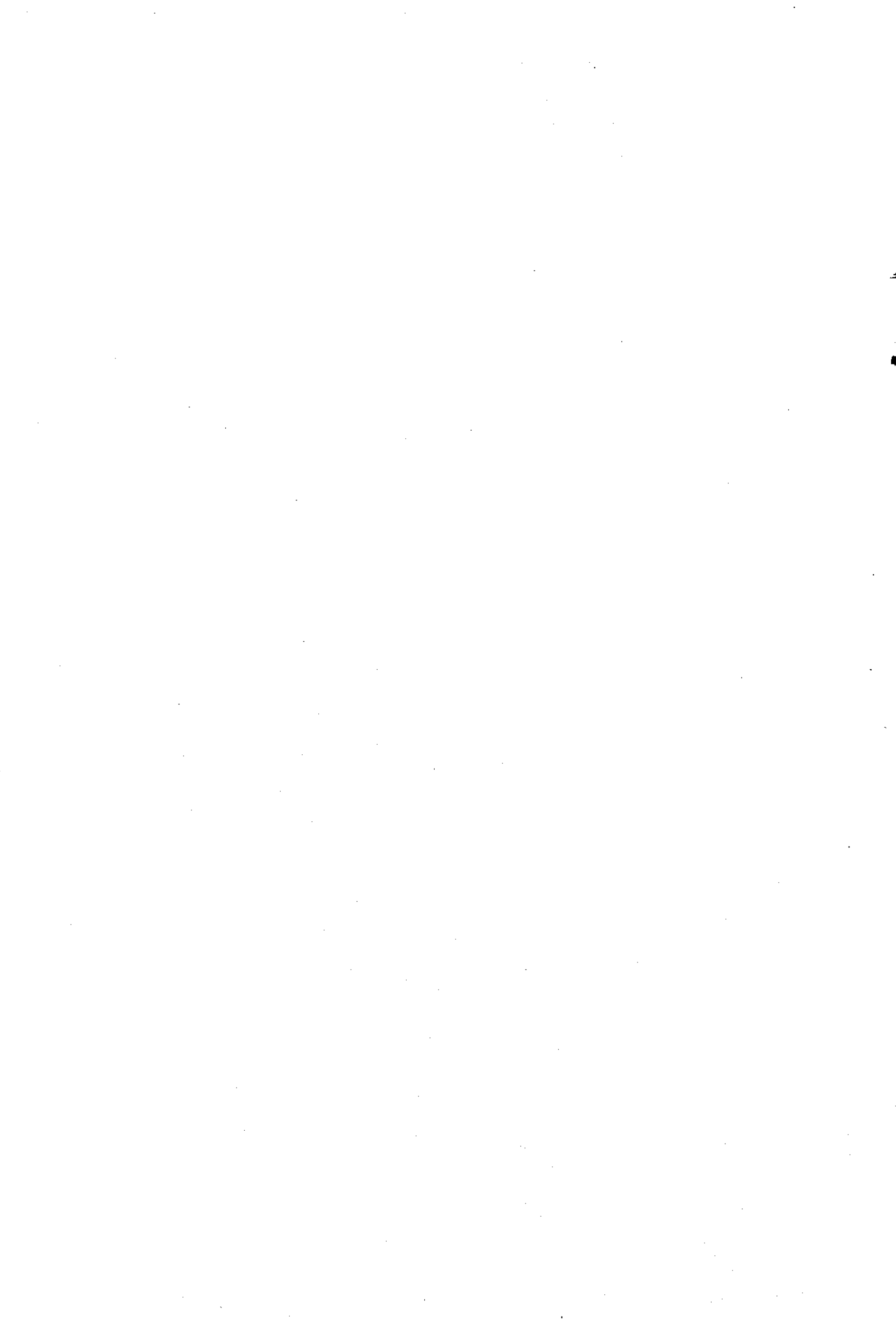
احمد بن حجر البنعلي

٣ - صيـــام التطـــوع .

شريدة المعوشرجي

كتب للمؤلف

١ – خطوط رئيسية لبعث الامة الاسلامية .
٢ – القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة .
٣ – الحد الفاصل بين الايمان والكفر .
٤ – الطريق إلى حج مبرور .
٥ – الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامى .
٦ – الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة .
٧ – دراسة جديدة للأسماء والصفات .
٨ – تحضير الأرواح كهانة جديدة في لباس عصرى .
٩ – الأصول العلمية للدعوة السلفية .



مَطابع دَارالقبَس ـ الكويت